

من نماذج الرثاء الرسمي العُماني (رثاء الإمام محمد بن عبدالله الخليلي)

الباحث/ خميس بن ماجد الصباري (*)

لطالما كان الشعر متفرعاً إلى أغراض عديدة؛ استطاعت أن تواكب الحياة الإنسانية، ولا تزال لها قدرة على التماهي مع المجتمع بكل أبعاده الخاصة والرسمية. ويعد غرض الرثاء من أصدق الشعر عاطفة، وأكثره قدرة على البوح عن مشاعره العميقة، وهو في مقام رثاء الأئمة العادلين الصالحين ذو مقام ينماز به؛ إجلالاً لشرف رتبته، وعلو مكانتهم. وسلطنة عمان كغيرها من بلدان العالم الإسلامي طالما شرفت بهذا الطراز من الأئمة؛ وكان حظهم من الرثاء وافراً. ومن بين أولئك الأئمة العادلين الإمام محمد بن عبدالله الخليلي (ت ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م)^(١) - رحمه الله تعالى- الذي ولي

(*) باحث دكتوراه بجامعة محمد الخامس (كلية الآداب والعلوم الإنسانية)

ومحاضر بجامعة نزوى بسلطنة عمان.

^١ - ينظر: السالمي، محمد شيبه بن نور الدين عبدالله بن حميد: نهضة الأعيان بحرية أهل عمان، ط١، دار الجيل، بيروت- لبنان، ١٩٩٨م، ص ٢٨٧. والفارسي، ناصر بن منصور: نزوى عبر الأيام (معالم وأعلام) ط١، د. دار نشر، سلطنة عمان، ١٩٩٤م، ص ٢١٠-٢١٢.

إمامة الدنيا والدين في عُمان ما بين المدة من (١٣٣٨هـ) إلى (١٣٧٣هـ) أي أنه استمر في الإمامة زهاء خمسة وثلاثين عامًا.

يتوافر هذا المقال على ثلاث قصائد في تأبين حضرته؛ واحدة قالها الشيخ عبدالله بن ماجد الحضرمي (الضريير) واثنان قالهما الشيخ عبدالله بن علي الخليفي.

في قصيدة الحضرمي ومن أول بيت في المراثية يسلم تدبير الأمور إلى الذات العلية المهيمنة على كل شيء؛ وهو تسليم كتسليم الضريير يده إلى قائده؛ ليمضي به أينما شاء في زحام الخفاء والعجز المطلق تجاه دفع الخطوب التي تأتي في مراثيته فاغرة فاهًا تهجم به هجمة واحدة- كما يصورها- وذلك من أنحاء أربع هي: الخطب، والمُصاب، والرُزء، والموت؛ هذه المباني التي يستعملها الحضرمي تتعدّد شكلًا؛ لتكون أقدر على خلق صورة خيالية؛ يذعر منها الكلّ المعبر عنه بـ(قلوبنا) ممثلًا في الشاعر الحاكي لسرد مأساة الموت؛ ليلوذ بعد ذلك بالطبيعة الصماء ملتصًا منها معتصمًا راسيًا صلبًا عاليًا، فإذا بها- أيضًا- قد راعها الأمر المهول؛ فخارت قواها، وتداعت صلابتها؛ فيخرج الشاعر منها خالي الوفاض؛ لا يلوذ بشيء إلا خذله، ولا يلوي على شيء إلا تخلى عنه حتى الجبال مظنة المنعة والتجاء "تَمُرُّ مِنْهُ مَرَّ السَّحَابِ". يقول من (الكامل):

فكر وإبداع

أمرُ المهيمن في البرية مُبرمٌ يقضي ويفعل ما يشاء ويحكمُ
تأتي الخطوبُ كثيرةٌ وبحقٍّ مَنْ خلق الوريَّ ذا الخطبُ منها أعظمُ
خطبٌ تكادُ قلوبنا من أجله تصلى بنار في الحشاشة تُضرمُ
وتكادُ شمُّ الراسياتِ تمرُّ من أهواله مرَّ السحابِ وتُقصمُ
عظمُ المصابِ على الذين استمسكوا بالعروة الوثقى التي لا تفصمُ
رزنوا بموتِ إمامهم وأميرهم وأمينهم ذاك الإمام الأكرم^(١).

وتعود الأنا الضَّريرة للشَّاعر مفتقده النُّور؛ بصورة ضديَّة لواقعه؛ إذ يجليها هذه المرَّة في صورة الإمام الرَّاحل؛ فيسبغ عليه صفات تلبس أكثرها هالاتٍ من نور البدر؛ في قوله: " بدر الثَّمام " وغلائل من ضياء الشَّمس؛ بقوله: " شمس نور سمائه " متَّخذًا من هاتين الصَّفَتَيْن مطلعًا يستشرف بضيائهما إقدامه إلى تعداد الصِّفات الآخر، ثم لا يلبث أن يُطرب بهذه المناقبية العليا؛ فيدخل في إيقاع موسيقي داخلي يستجلي فيه قدرته الفائقة على حسن النِّقْسيم الموقَّع؛ ناهيك بقوله: " نشر الهدى، وثنى العدا، وجلال الصِّدا... " فيقول من (الكامل):

بدر الثَّمام محمَّد نور الهدى غيث النَّدَى حثفُ العِدا إذ يقدُمُ

^١ - الحضرمي، عبدالله بن ماجد: ديوانه، ص ١٧٢-١٧٤.

أَيْنَ الْإِمَامُ أَبُو خَلِيلٍ صَفْوَةُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ الْأَرِيحِيُّ الضَّيْفُ
سَيْفُ الْإِلَهِ وَشَمْسُ نَوْرِ سَمَائِهِ يَنْبُوعُ رَحْمَتِهِ لِمَنْ شَاءَ يَرْحَمُ
الْمُرْتَقِي دَرَجَ الْعَلَا فَسَمَا إِلَى غَرْفِ الْجَنَانِ وَمَا هُنَاكَ سَلَامٌ
بَلْ بِالْتَّقَى وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي شَيْمٍ لَنْشُرِ ثَنَائِهِ تَتَقَدَّمُ
بِمَقَالِهِ وَنِصَالِهِ وَفَعَالِهِ وَخِصَالِهِ وَاللَّهُ حَقًّا يَعْلَمُ
نَشَرَ الْهُدَى وَثَنَى الْعِزَّ وَجَلَا الصَّدَا وَذَرَى النَّدَى بَيْنَ الْبَرِيَّةِ يَفْسَمُ^(١).

حتى إذا امتلأ كأسه من الاهتزاز لهذه الأريحيات استنفهم
استفهام الضَّرِيرِ مستنكراً أن يضمَّ القبرَ بحرًا خضمًا، وشمسًا
ساطعة، وطودًا شامخًا؛ فيعلو بكأوه على أطلال الإمامة البائدة بعد
طربه بفضائل الإمام؛ فتترامى عبراته في مكاشفة نفسيّة متوتّرة؛ لا
تقف عند باب النور حتى يدهمها باب الظلام؛ حيث قبر الإمام، ولا
يلبث أن يترحم عليه لانّذا بالطبيعة في تصوير شكل الرّحمة التي
يستنزلها عليه في صورة "سحائب" فيقول من (الكامل):

هَلْ كَانَ تَحْتَ الثَّرْبِ يُدْفَنُ مَنْ لِه تِلْكَ الشَّوَاهِدُ وَالشَّهِيدُ الْأَعْظَمُ
أَمْ هَلْ يُحَجَّبُ شَخْصُهُ مَنْ ذِكْرُهُ فِي النَّاسِ يُنْشَرُ بِالثَّنَاءِ وَيُخْتَمُ
هَلْ كَانَ يَحْوِي الْبَحْرَ قَبْرٌ ضَيِّقٌ؟ أَمْ هَلْ حَوَى الشَّمْسَ الْمَكَانُ الْمَظْلَمُ؟
سَجَمَتْ سَحَابٌ رَحْمَةُ الْمَوْلَى عَلَى ذَاكَ الضَّرِيحِ عَهَادُ وَذَقِ يَسْجَمُ
أَوْ مَا عَجِبْتُمْ أَنْطَوْدًا شَامَخًا عَالِي الذَّرَى تَحْتَ الثَّرَابِ يُخَيِّمُ^(٢)

^١ - المصدر السابق: ص ١٧٢-١٧٤.

^٢ - المصدر السابق، ص ١٧٢-١٧٤.

فكر وإبداع

ويرجع إلى (العين) مَظِنَّة سكب عبراته؛ فيعاور بين استعمالين اثنين في البكاء؛ هما بكاء بوساطة العبرات، والبكاء بوساطة الدَّمْع؛ وهما سيَّان ولكن ثَمَّة ملمح في دالة " العبرات " ما يجعلها قريبة من العبرة؛ لأنَّهما ينطلقان من جذر واحد (ع ب ر) وكثير ما كانت العبرة مَثَارًا للعبرة (الدَّمعة) فيقول من (الكامل):

إِنْ يُبَكَ بِالْعَبَرَاتِ لَحْتَ لِفَقْدِهِ بقرائح مثل الجواهر تُنظَّمُ
أَوْ يُبَكَ بِالدَّمْعِ الْغَزِيرِ بِكَيْثِهِ شِعْرًا بِهِ حِكْمٌ بِعَقْدٍ يُحْكَمُ^(١).

وتمضي المراثية في سيرورتها، وتبدأ الرِّسْمية الخطابية تطلُّ برأسها من حيث تقديم واجب العزاء للشَّعب العماني، ثم يتخلَّص إلى تهنئة الإمام المنتخب الجديد ببراعة، وبأسلوب لطيف سلس يحفظ له مكانة حزنه الوفيَّ على الإمام الرَّاحل، ولا يفلت من يديه تهنئة الإمام القادم الذي يُضفي عليه صفاتٍ هو ينشدها أصلاً لذاته الضَّريرة من الضيَّاء والإشراق والإزهار؛ فيقول من (الكامل):

أَهْلَ الصَّفَاءِ لَكُمْ عَلَى فَقْدِ اسْمِهِ حَسَنُ الْعَزَاءِ وَحَبْدَا الْمُتَقَدِّمِ
ثُمَّ اشْكُرُوا الْمَوْلَى لِمَا أَوْلَاهُ مِنْ نَعَمَ بِنَصْرِ الدِّينِ فَهُوَ الْمَنْعَمِ
أَنْ قَدْ أَقَامَ الْمُسْلِمُونَ لِأَمْرِهِمْ رَجُلًا بِحُكْمِ اللَّهِ فِيهِمْ يُحْكَمُ
بِضِيَاءِ عَدْلِكَ أَشْرَقَتْ أَرْجُلُهَا وَتَزَاهَرَتْ بِسَمَاءِ رَبَّاهَا الْأَنْجَمُ
لَبِسْتُ بِدِينِ الْمُصْطَفَى حُلَّ الثَّقَى خَضَرَ الْحَوَاشِي بِالضِّيَاءِ تُسَهَّمُ

١- الحضرمي، عبدالله بن ماجد: ديوانه، ص ١٧٢-١٧٤.

فعليه ذو الآلاء صلى ما جرى قلم به الحكم المنيرة تُرسم^(١).
 أما مرثيتا الشيخ عبدالله بن علي الخليلي في الإمام محمد -
 طيب الله ثراه- فقد حيرتا البحث مستهل الأمر؛ كيف يصنفهما؟
 أتصنفان تحت: رثاء العم؟ لكون هذا الإمام عمًا للشاعر؛ بما تبين من
 قراءة سيرة الشاعر^(٢)؟ أم يحسن أن يكون مكائهما تحت الرثاء
 الرسمي؛ فأنثر البحث تعيين الخيار الأخير؛ لغلبة الروح الرسمية في
 عموم النصين، ولجلال مقام السلطة الروحية للإمام بما تكتنزه هذه
 المكانة العليا من معاني الروحانية الشريفة، وأبعاد الحضرة الحنيفة
 العادلة في شخص الإمام- رحمة الله عليه- الذي يستجلي خطابه
 مواقف الطهارة الدينية، والنزاهة الإدارية الحاكمة؛ ولأن في أمثال
 هذا النموذج من الأئمة العادلين مجمع الصفات الإنسانية الكبرى،
 ومطمئن المناقب والمثل الأخلاقية العظمى، لم لا؟ وهو صفوة ما
 أفرزه المجتمع العماني من رجالات العلم والفهم، وأئمة السياسة
 والحكم يومذاك.

القصيدتان الهزئية والقافية الأجرى أن الشاعر لم يقلهما معًا
 في وقت واحد، بل لعله قالهما في وقتين متقاربين شيئًا ما، والأرجح
 أنه قال الهزئية قبل القافية؛ ولهذا الترجيح أسباب:

١- المصدر نفسه، ص ١٧٤.

٢- ينظر: د. محمد صالح ناصر ود. سلطان بن مبارك الشيباني: معجم أعلام الإباضية (قسم
 لمشرق) ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ٢٠٠٦م، ص ٢٨٠.

أولها- أنالهمزية تميل إلى الانفعال بالحدث أكثر من الأخرى؛
فهي تصور الحيرة والدهشة من جرأ سماع نبأ المصاب من خلال
استعمال متوالية من أساليب الاستفهام؛ أمّا ذات روي القاف فتميل إلى
تقبل الأمر، وارتداء ثياب الصبر والسلوان.

وثانيها- أنها أقصر نفساً من الأخرى التي تصل إلى
(٨٣) بيتاً؛ ممّا يجعلها مستأثرة- أيضاً- بالوقت الأطول بينما الهمزية لا
تتجاوز (٥٩) بيتاً.

ولا يغيب عن ذي بال ما للإيقاع من دلالة فارقة في مجرى
الاستعمال العروضي؛ فبحر الخفيف - بحر القصيدة الهمزية -
يتناسب مع الحدث العابر المفاجئ، ومع المثير الوقتي؛ لإخراج النفس
من رباطة جأشها ورزانتها، بينما يتناسب البحر الطويل عندما تستقر
الحالة النفسية للشاعر ويحسن عزاؤه؛ فيجتزأ آلام الفجعة الواحد تلو
الأخر عبر تقطيعات ثماني من التفعيلات ينفث بها آلامه تلك نفساً
نفساً حتى تخفت نار التياحه !

ويزيد هذه الترجيحات فكرة انفردت بها القصيدة القافية
الأطول؛ مفادها أن ثمة استغاثة ساخنة يلهج بها الشاعر في دعائه إلى
المولى - عز وجل - أنه يندارك الأمة العمانية من انشعاب الأمر،
وتفرق الكلمة في اختيار خليفة لهذا الإمام الراحل؛ وهذا الأمر حالة
تالية للتفكير فيه يعقب الحالة الأولى، وكان الشاعر قد استشف أطماعاً

ما، يرغب كلُّ منها في الوصول إلى عرين القلعة الشَّهباء؛ بدليل قوله من (الطَّويل):

إلهي تداركُ أمتي أن تفرِّقا ونحلُّها البيضاء أن تتمزِّقا
إلهي خطُّها أن يداسَ عرينُها فقد كادَ ما بالكيد أن يتحقِّقا^(١)
نعم، القصيدتان تتفقان في أكثر عناصرهما، وتختلفان في أقلِّ عناصرهما، ومن ذا وذاك تصنعان لوحيتين كبيرتين لمشهد خطابيٍّ متكامل، وتطرَّدان معًا في تشكيل صورة جمعيَّة واحدة. تتشكَّل اللوحة الأولى بالقصيدة الهمزيَّة، ويمكن وصفها بخطاب لوحة البكاء. وتتشكَّل اللوحة الأخرى بالمرثية القافيَّة (على رويِّ القاف) التي يمكن عَنوانُها بلوحة التَّعزِّي:
أولًا لوحة البكاء:

كما سلف القول: الهمزيَّة لا تتردَّد أن تبدأ بمتواليَّة من الاستفهام الملتبذوال (إصابة المُقلَّتين)؛ فإصابة (العقل) فإصابة (آيات الحقِّ) في أزمنة نفسيَّة شعوريَّة يلُفُّها التَّيُّ، وتحوطها الحَيرة إلى درجة لم يعدِ الشَّاعر قادرًا على تعيين حدِّث ما بعينه؛ لهول الفاجعة؛ فيتناثر ماء شجونه على ما حوله من سماء، وأرض، وغيرها؛ مكثراً من استعمال حرف العطف " أم " يقول من (الخفيف):
أصيبتُ في مقلَّتَيْها السَّماءُ فبكت من بكائِها الغبراءُ

١- الخليلي، عبدالله بن علي: ديوان وحي العبقريَّة، ص ١٢.

فكر وإبداع

أَمْ أُصِيبَتْ فِي عَقْلِهَا هَذِهِ الدَّارُ فَتَاهَتْ وَتَاهَ الْفَضَاءُ
أَمْ أُصِيبَتْ لِلْحَقِّ آيَاتُهُ الْبَيْتُ ضُفْهُمَاتُ بَلِيلِهَا السَّمْحَاءُ^(١)

وَتَهَيَّم حَيْرَةَ الشَّاعِرِ فِي فِضَاءِ حَدَثِ الْمَفْاجَأَةِ عَلَى مَسْتَوَى
عُمُودِيٍّ يَصْعَدُ بِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَعَلَى مَسْتَوَى أَفْقِيٍّ عَلَى صَعِيدِ
الْغَبَرَاءِ (الأرض) بِمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ مَحْسُوسَاتٍ طَبِيعِيَّةٍ،
وَرُوحَانِيَّاتٍ قِيَمِيَّةٍ مَجْرَدَةٌ أَمِلًا مِنْ كُلِّ مَفْرَدَاتِ الطَّبِيعَةِ؛ فِي أَرْضِهَا
وَسَمَانِهَا أَنْ تَدْفَعَ عَنْهُ النَّبَأَ الْمُرِيعَ، وَلَكِنْ هِيَهَاتَ ذَلِكَ؛ فَكُلُّ أَوْلَنَّاكَ
فِيهَا هُوَ فِيهِ سَوَاءٌ، حَتَّى الضِّيَاءُ وَالظُّلَامُ؛ فَتَتَأَكَّدُ الْحَيْرَةُ
وَالْاضْطِرَابُ؛ فَيَسْقُطُ الْفَارِسُ مُتْرَامِيًّا مُضْطَرِبًا عَلَى عَثَبَاتِ
الْقَضَاءِ، وَقَدْ عَزَّ الْعَزَاءُ؛ يَقُولُ مِنْ (الْخَفِيفِ):

نَبَأٌ مَا قَدْ فَاجَأَ الْكَوْنَ أَدهَى مِنْ قَضَاءٍ إِنْ حُمَ يَوْمًا قَضَاءُ
لَمْ يَرُعْنِي فَحَسْبُ بَلْ رِيعٍ مِنْهُ الْكَوْنُ حَتَّى الضِّيَاءُ وَالظُّلْمَاءُ
فَاجَأَتْنِي بِوَادِرِهِ السُّوْدُ بِسُوءٍ قَدْ شَقَّ عَنْهُ اللَّحَاءُ؛
فَتَرَامَيْتُ تَحْتَهَا الْمَسُّ الصَّبُّ رَوَاهِيَهَاتٍ أَنْ يُعِينُ الْعَزَاءُ^(٢).

وَلَا يَخْفَى أَنَّ خُطَابَهُ هَذَا قَدْ اسْتَمَرَّ دَوَالً مُحَدَّدَةً لِلْوُصُولِ إِلَى
الْبُوحِ عَنْ غَايَتِهِ مِثْلُ: (فَاجَأَ، فَاجَأَتْنِي)، (يَرُعْنِي، رِيعَ)، (السُّودُ،

١- المصدر السابق، ص ١٢.

٢- الخليلي، عبدالله بن علي: ديوان وحي العبقريّة، ١٢.

السُّوء)، (شُقٌّ، تراميتُ). وجميعها انحكمت بحكم حال الشَّاعر المنفعلة.

ما إن يسقط الشَّاعر من تأثير النُّبأ المُفجع حتَّى تتملكه حيرة مزلزلة أخرى؛ أقوى من الأولى؛ فيجهد عائدًا في تعيين المُصابين: موت نفسه، أم موت الدَّهر؟ أم رُميَ الجميع بالخطب الذي يُشخصه في صورة بشعة؛ وهو فاغر فاه، طائش اللَّب، له عضَّة الموت الهائلة؛ فيلتهم الكون جميعًا؛ يقول من (الخفيف):

أُعِينَا لِلدَّهْرِ أَمْ نُعِيَ الدَّهْرُ — رُ إلينا صباحُه والمساءُ
أَمْ رُمِينَا بِالْخَطْبِ يَعْتَسِفُ الْأَفْ — قَ مُصَابًا تَهْوِي بِهِ الْبِأْسَاءُ
فَاغْرًا فَاه طَائِشَ اللَّبِ يَنْعَى — سَيِّدًا خُلْفَهُ الْحَيَا وَالْحَبَاءُ
عُضَّةُ الْحُتْفِ عُضَّةٌ مَاتَ فِيهَا الـ — كُونُ حَتَّى ظِلَامُهُ وَالضِّيَاءُ^(١).

بعد هذا تبدأ كَيْدُ الشَّاعر الحرِّ بتنسُّم عاطر سيرة الإمام العادلة؛ فتتعرَّى بَارِيحِيَّةُ مكارم أخلاقه المُشْرِئِبَّة إلى الفردوس الأعلى في تَمَاهٍ مع سياق المَرثِيَّة الأخرى ذات رَوِيٍّ القاف. ويَتَّخِذُ الخطاب هنا مظهر السَّرْدِيَّة القصصِيَّة لمكانة الإمام منفصلة بزمان المُضي عن زمان الحاضر تَمَامَ الانفصال في مقارنة واضحة بين زمنين لا يلتقيان في حجم المرتبة الأولى التي تبوَّأها الإمام، وفي مُتَوَالِيَّاتٍ علائقيَّة تضع النَّتَاجَ مقرونة بسببيَّة حزينَة؛ فيقول من (الخفيف):

^١ - المصدر السابق، ص ١٢.

كنت كالشمس في البرية حتى أفلت فهي والوجود خفاء
كنت كالبحر للعفاة فلما نضب الماء ماتت الأحياء
كنت كهفا وملجأ ونصيرا وغياثا إن شدت اللواء
كنت نورا لمذليج ومنارا لكريم تاهت به الضراء
كنت كنز الحياة حقًا ولكن فني الكنز فالحياة هباء^(١).
ثانياً - لوحة التعزي:

المرثية القافية (ذات روي القاف) تعزيز رانث؛ غير عاجل
للهزيرة الأنفة الذكر؛ للأسباب المقولة بدءاً؛ فهي تستهل خطابها
بملناجاة تستلذ الدعاء، وتلج على تكرار بعض ألفاظه؛ حيث ينساب
الخطاب بين طرفين؛ عبد يتعين بشخص الرائي الحزين الغيور على
كرسي الإمامة من كيد الكائدين، وسيّد تخضع الأفلاك والأملك
لعظمته، وتذلّ الأرواح والأعناق لجبروته؛ ذلك هو الله ذو القوى
الهائلة، والمحرك لهذا الكون الواسع بكلّ أجهامه وأحجامه، وبأدق
ذراته وجزئياته، والفاعل للحركة الكونية الكبرى المتناهية في
الانضباط والدقة والنظام.

يستحضر هذا العبد هذه الصفات المبهرة لسيّده العظيم؛ فيرقب
الخلاص من قبّله وحده؛ فيجأ إليه بالدعاء والإنابة، مستهلاً بلفظ
"إلهي"؛ اللفظ المركب من الاسم، وضمير ياء المتكلم، في علاقة ثنائية

١- الخليلي، عبدالله بن علي: ديوان وحي العبقريّة، ص ١٢.

متلازمة تفرض تبعية العبد لسيده؛ بإضافة ياء المتكلم إلى لفظ "إله" في سياق خطابي يتخذ النداء أسلوباً يدعم به حاجة العبد إلى استئزال المدد من علياء سيده الكريم؛ يقول من (الطويل):

إلهي تدارك أمتي أن تفرقاً ونحلتها البيضاء أن تتمزقا
إلهي خطها أن يداس عريتها فقد كاد ما بالكيد أن يتحققا
إلهي ما للكون مادت صروحها وماجت به الآفاق غرباً ومشرقاً
إلهي ما للأرض تهوي بأهلها تكاد على بحر العقاب أن تزلقا
إلهي ما للعرش والقرش والسما يذبن على حر المصاب تحرقا
إلهي أنت الله تقضي كما تشاء وتحكم مختاراً وتعدل متقى^١.

ويتنزل المدد من الذات العلية، في صورة وجدانية مجردة تتمثل في جميل الصبر الذي سيطرد إلى أن يصبح خلقاً، أو موقفاً قيمياً ثابتاً للشاعر بعد ارتعاشة الجزع تلك؛ فتشرق الطبيعة بعد إظلام. ثم يتدخل الاستفهام الإنكاري في إنكار الجزع المتعالي الذي مرَّ عليه إبان سماع نبأ الوفاة - كما سبق القول عنه في الهمزية- ويحضر مقام الاستمساك بعروة الدين المتين الذي طالما تأوي إليه نفس المؤمن بعد ارتياح؛ فيقول من (الطويل):

قضيت ولم تظلم إلهي فحسبنا جميل العزا والصبر فيك تخلقاً
أغلبنا الجلى على الصبر والعزا وعروئنا في الله ما كان أوثقاً

١- الخليلي، عبد الله بن علي: ديوان وحي العبقريّة ، ص ٤٤٠.

ولله في القلب الموفق طالعٌ من النور إن تدجُ الطبيعة أشرقاً^(١)
وتدلف الأنا المتعزّية إلى الأمام عليمه بطبائع نكبات الدهر؛
فكم أردّين من عوالم، وكم فرقن من شمل، ثم تتأسى بنبيّنا المختار-
صلى الله عليه وسلم- الذي لم يسلم هو- أيضاً- من شرب هذه الكأس
المرّة، في حال إقرار الشّاعر بإرادة الله- سبحانه- وإيمانه العميق
بحريّة تصرّيفه للدهر؛ يقول من (الطويل):

سلوا نكبات الدهر هل بثن ليلة على ترة إلا وأصبحن طرّقا
سلوهن كم أردّين من عهد آدم عوالم لا تحصي وغودرن سبّقا
أدرن على المختار كأساً مريرة وما كذن أن يفعلن شيئاً مُصدّقاً
ولكنّه التّصريفُ لله والقضاً فسبحانه ربّاً تفردّ بالبقا^(٢).

ويرفد هذا السّياق عنصر ثان يشدّ من أزره؛ وهو عنصر
الخليل؛ أقرب الأصدقاء حميميّة، وليس هذا بغريب عن واقع المجتمع
العُمانيّ في تقاليده وثقافته الاجتماعيّة؛ فقد بات معروفاً أنّ الشّاعر من
أسرة الفقيد؛ فحريّ بخليل الشّاعر الذي يمثل هنا رمزاً للمجتمع
العُمانيّ الأصيل أن يقوم بواجب عزائه، وحرّياً بالشّاعر المُعزّي أن
يظهر أمام الرّجال بسيماء التجلّد؛ من أجل ذلك التفت الشّاعر فإذا

١- المصدر السابق، ص ٤٤٠.

٢- المصدر نفسه، ٤٤٠.

بالخليل قريباً منه، وإذا به يدفع إليه بساخن مشاعره في جوٍّ من
الوقار، والتحكُّم بالانفعال؛ فيقول من (الطويل):

خليلي مالي لا أقول مُصرِّحاً وخيرُ مقال المرء ما كان أصدقا
لموتِ إمام المسلمين محمدٍ مُصابٍ على الدين الحنيفي والثقي^(١)
وتمهيداً لمشهد جنائزي؛ يبدأ الشَّاعر بنقل الخطاب إلى شيء
مفزع، يمتلك أداة سلب الأرواح من الأبدان؛ ليطير بها حيث يسكن
الغيب؛ فيناديه بأقرب أدوات النداء؛ الهمزة (أ) في مقاربةٍ أحيائيَّةٍ
بينهما، كونهما جزأين مخلوقين من أجزاء الكون الواسع؛ فهما وإن
اختلفا نوعاً، لكنهما يشتركان تفاعلاً مع سائر أجزاء الكون المتحرِّكة،
في ديناميكيَّة رُحيَّة يستشعرها جنان المؤمن؛ فكلُّ يتحرَّك في مجاله،
ويلتقي مع الآخر في اشتراكيَّة كونية تمسك بها خيوط القدرة المطلقة
التي تستغرق كلَّ الحركات، وإن خفيت في نبض العروق، أو غارت
في فجاج المحيطات؛ فيقول من (الطويل):

أعزرائيل من أبقيت بعد محمدٍ لموهبة تبقى وشعواء تُتقى
أتيت على نفس زكّت وتقدّست وما كذبت ترعى الشان أن يتمزقا
ثجّر عها كأساً على الناس سُكرها كأنك نسقيها الزمان وما سقى^(٢)

١- الخليلي، عبدالله بن علي: ديوان وحي العبقريّة، ص ٤٤١.

٢- المصدر السابق، ص ٤٤١.

وتمضي الآلة الحدياءُ مزملّة بجثمان إمام الهدى تسطع أيادي
حاملها سطوع البرق في الليلة الظلماء الممطرة؛ فيقول من)
الطويل):

إمام الهدى مالي أراك مزملًا يحثُّك داعي الله شوقًا إلى اللقاء
كأنك والأيدي بنعشيك شرّع سنا بارق في مثنى أطلسٍ مُودِقاً^(١)
وتصل الجنازة إلى ضريحها، وهي يملأ نورها وشذاها الدنيا؛
فيحتفي أصحاب المقابر بالجار التقي، وهناك يتلو الشاعر تأبينه
الختاميّ على المشهد الجنائزي؛ فيطنّب في سرّد مناقبه الدينيّة
والدنيويّة؛ شاهدًا له بأمّهات الفضائل من الحكمة والعفة والشجاعة
والعدل.

ويبلغ الدرجة الأعلى من التضامنيّة والحميميّة المعبرة عن
ذات قرابته بحضرة إمامه؛ إذ يناديه باسمه حسب (محمد)؛ دونما
أية ألقاب أو كُنَى، داعيًا له بكلّ خير، ومسطراً في تجربته المبدعة
بعض أبيات الحكمة؛ فيجنيها ثماراً يانعة من قطاف هذه الرحلة
الشعورية الحزينة، والجا إلى باب الحكمة من (ربّت) وواوها: في
قوله: " وربّت فان جسمه وهو خالدٌ...." ليفسح للخيال أن يمضي

^١ - المصدر نفسه، ص ٤٤١.

محلّقا في فضاء" الافتراض المطلق والاسترسال التلقائي"^(١) يقول من (الطويل):

هنيئاً لأصحاب المقابر جيرة	سقت دوحها التقوى فطال وأعدقا
هنيئاً لأصحاب القبور فائما	يُهنا بالجار النقيّ من اتقى
ويا لضريح نوره ملأ الفضاء	وفاح على الدنيا شذاه محلّقا
محمد أنت السيّد الخالد الذي	به الدّين أضحى ناضر العود مورقا
فتوبت من مولاك خير مئوبة	غداة الجزأ حول الثّبين مرفقا
وربت فان جسمه وهو خالد	يعيش بنعماه الزمان مفرقا
يشيد بناء الدّين حيّا وميّنا	ويحفظ أمر الله أن يتفرقا" ^(٢) .

وخلاصة القول: إن هذا النموذج من شعر الرثاء الرسمي العُماني هو مرآة تشف عن مرتبة المراثي الدينية والعلمية والاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد، وصورة جليلة عن الحسّ العلائقي بين الحاكم والمحكوم، وأثر باق لنموذج فريد من نماذج الحكم الإسلامي. وعلى الرغم من كونه رثاء رسمياً تبقى عاطفته صادقة؛ لأنها تتماس مع العاطفة الدينية التي تتواشج مع روح الموثي الإمام الذي تناط به مهمة النود عن حماه، وتطبيق أحكامه، وإنفاذ أوامره؛ وفق شريعة شعارها الرحمة، ولوأوها العدل بين الرعية.

^١ - الغدامي، عبدالله بن محمد: ثقافة الأسئلة (مقالات في النقد والنظرية) ط١، مؤسسة سعاد

الصباح، الصفاة- الكويت، ١٩٩٣م، ص ١٠٥.

^٢ - الخليلي، عبدالله بن علي: ديوان وحي العبقريّة، ص ٤٤٢-٤٤٣.

المصادر والمراجع

- الحضرمي، عبدالله بن ماجد (ت ١٩٧٧م). ديوان الشيخ عبدالله بن ماجد، ط١، تح: خلفان بن عامر الحضرمي، مكتبة دار الكتاب الإسلامي، مسقط - سلطنة عمان، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٥م.
- الخليلي، عبدالله بن علي: ديوان وحي العبقريّة، ط٢، مكتبة الضامري، مسقط - سلطنة عمان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠.
- ٢٠٠٤م.
- السالمي، محمد شيبّة بن نور الدين عبدالله بن حميد: نهضة الأعيان بحرية أهلعمان، ط١، دار الجيل، بيروت- لبنان، ١٩٩٨م، ص٢٨٧. الفارسي، ناصر بن
- السعدي، فهد بن علي بن هاشل: معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية، ط١، مكتبة الجيل الواعد، مسقط - سلطنة عمان، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
- الفارسي، ناصر بن منصور: نزوى عبر الأيام (معالم وأعلام) ط١، د. دار نشر، سلطنة عمان، ١٩٩٤.

- الغدامي، عبدالله بن محمد: ثقافة الأسئلة (مقالات في النقد والنظرية) ط ١، مؤسسة سعاد الصباح، الصفاة- الكويت، ١٩٩٣م، ص ١٠٥.
- د.محمد صالح ناصر ود. سلطان بنمبارك الشيباني: معجم أعلام الإباضية (قسم لمشرق) ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ٢٠٠٦م، ص ٢٨٠.